أُمَّـــاهْ

إنتظرت أن يرحل هذا الحزن المُمِضّ الذي غمر قلبي وأخذ بتلابيبي لكي أكتبَ إليك رسالتي الأولى، وربما الأخيرة. ولكنه حزن مقيم لم يبْرَحْ قلبي منذ أقمتِ في غرفتك لا تبرحينها حتى أُخرجتِ مشيعة بدموعنا وآلامنا ونجيبِ الذين عرفوك فأكبروك، واللاتي خدمنك فكنت أعز عليهن من أمهاتهن.

حزني هذا الذي أقام لا يُريمُ عرفته مرتين في حياتي: يوم تلقيت نعي والدي، وأنا بعيد، بعيد في القاهرة التي كانت تفصلها عن فاس في أيامنا تلك سنوات من سفر ملغوم، أراضي وبحار تصبح وتُمْسِ عن إنفجارات الحرب وتهدد حضارة الإنسان بالانهيار. كنا نعيش على هاجس الموت حتى إذا علمتُ بموت الوالد – ولم أكن أنتظر – تجبد الموت كله في الفاجعة التي كانت لي وحدي. يومئذ كنت أنتَ أنتظر أن يطالعني من كل مَنْحَنىً، أتفحص وجه كلِّ رجلٍ أنيق جميل، صحي، هادئ ظَاهِرُ ظَهْرَ الملائكة، عساه يكون. الحزن يملأ قلبي، يفخرُ فاه ليجتاح كياني..يومئذ عرفت الحزن وما يزال هذا الذي عرفت يقيم في زاوية من عاطفتي وقلبي وإحساسي وعقلي جميعا، مهما غمرت مباهج الحياة زوايا أخرى من كياني.

وعرفته والحياة تنسحب رويدا رويدا من كيانك فأراك في كل مرة على **برتنيه**. كنت أدق بابك فيبتهج قلبك، تغمرني إبتسامتك وقبلاتك، وأنا أتملّى طلعتَك، سؤالك الهادئ الحنون عن حالي، عن صحة زوجتي وأولادي أخذت تُبطئ بها شفتيك المبتسمتين وعينك الطافحتين بالشوق والحب والحنان والأمل.

اختصرت حياتك في أولادك وأحفادك حتى إذا ودعت – تحت سمعك وبصرك – الأولى ثم الثانية ثم الثالث، ودّعت معهم كل مباهج الحياة، ولكنك إزددت تعلقا بنا مخافة أن نقلت من هذه الحياة التي عرفت مرارتها أكثر مما عرفت من مباهجها، وشقيت فيها أكثر مما سعدت.

وكنت مع ذلك مثال الأم الصبور التي تعرف الله وترضى بقدره. تكظمين الألم، يعيش في زوايا كيانك، تحتفظين به سرا من أسرارك، لا ترى أنه من حقك أن تنغصي به حياة الآخرين.

-كنت أدخل إلى غرفتك. والحياة تنسحب منها كما تنسحب من غصن في خريف أيامه. لم أكن غِرا فأن أعرف أنك تودعين. ومع ذلك كان يغمرني حزن الأطفال وأمهاتهم تحزم أمتعتهن إلى رحيل. سر ذلك أني ارتبطت بك منذ تلقيتني رضيعا بين يديك لتطعمينني من ثديك سر حياتي. لم أكن كأطفال اليوم ترتبط حياتهم برضاعة اصطناعية. مع حليبك كان الحنان والحب والتعلق والارتباط إلى الأبد. ويوم بدا هذا الارتباط مهددا بغياب كان الحزن الحزين والإثم الممضّ والهم الذي لا يَبرح.

والقدر الذي وضعني بين يديك رضيعا وضعك بين يدي وأنتلفظين آخر أنفاسك. في مساني ذاك الذي ظلله الحزن والأسى كنت مروّعا، لم أكن أدري بِم؟، أخذت وزوجتي نستحث السيارة في رحلتنا القصيرة إلى زيارتك. كنت أحسبها إحدى هذه الزيارات التي تبتهجين لها. ونبتهج، والتي لا تريدين لها نهاية حتى إذا هممت بالعودة وأنا أودعك هتفت بي مستجيرة من الوحدة:

-أو تتركني وحدي...؟

كانت الكلمة تعيش معي حتى أحظى بزيارة أخرة لك. لا يعرف الطعم المر للوحدة إلا من كابدها.

في مساني ذاك الأسود اقتربت خطاي من منزلك فهتفت بزوجتي:

-هم ضخم يركبني...

كنت أشعر أني مقبل عليك، مريضة خائرة القوى، منتظرة إياي. كنت فعلا تنتظرني لوداع أبدي...

-أمي...أمي...

هتفت بك وعيناك مغمضتان. أنفاس باهتة كانت تتردد بين شفتيك. هادئة مستسلمة كما كنت دائما حتى في يعان صحتك. احتضنت يديك. عيناي معلقتان بشفتيك كأنما تحاولان أن تسمعا آخر كلماتك. وإنما هي الأنفاس الأخيرة تحركهما تفضي إلي بما لا تفضي الكلمات. امتد أصبعي إلى نبضك يتحسسه. ما يزال يتشبث بالحياة في وَدَاعة. ها هي ذي حركته تنسل رويدا رويدا...يستسلم في إيقاع متهاوٍ مع أنفاس تتحرك بها شفتاك في أناة. ما يزال بي أمل يراودني كما يراود الأطفال المذج، لا يعرفون الموت ولا به يعترفون، كما لم تعترف حفيدتك الطفلة وهي تهتف بي في لوعة:

-ولم ماتت...؟

وها هي ذي أنفاسك تكتب آخر كلماتها في الحياة. نبضك هذا المتحرك يتجمد بين أصبعي. والأمل يغلب الألم. فقد تشبثت بحياة لم تتشبثي بها ساعة أذنت بفراق. أقول لسذاجتي:

-لا ... ما زالت...

وأتطلع إلى وجهك لم يتغير. الحياة والموت. قفزة قصيرة هادئة هينة بين عالم وعالم. لاتكاد نشعر بها. أتراك شعرت وأنت تعبرين الجسر؟

كانت الشيخوخة والوهَن قد أخذا منك. ما أظنك بذلت مجهودا كبيرا ووعيا كاملا بالرغبة في عالم الفناء تعويضا عن عالم البقاء. كنت أشعر – دون أن تنبسي حتى لاتؤلميني – بأن تلك اللحظة كانت رغبتك، تطلبين من الله في سرك أن يحققها. فالذين يرغبون في الحياة هم الذين لا يشقون بمبادلها. وقد شقيت حتى النُّمالةْ. فكانت – فيما أعتقد – لحظتك تلك لحظة سعيدة.

وها هو الأسى يتحول إلى حزن مقيم. لم أعد طفلا. ولكن فراق الأمومة فيك لا يعترف بالطفولة ولا بالرجولة والكهولة والشيخوخة. كنت أعْجَبُ للذين يبكون للموت. الرجل لا يذرف الدموع. أسرّ بها إلى رجل جليل المحيَّ، وأنا طفل صغير، أذكر ذلك، وقد

أخذت أبكي كما يبكي الكبار لفقدان رجل من العائلة. ولكني بكيت للموت مرتين: مرة حينما بلغني الخبر الفاجع المفاجئ عن بعد. ومرة حينما عبرتِ الجسر – أنت بين يدي – إلى العالم الآخر.

وقفت على قبرك لأودعك – أبديا – ولأتركك – بعد لحظات – وحدك كما لم تكوني ترغبين. ما كنت لأفعل. اغفري لي ذلك. فإن الموت يُكرِه الرجال على ألا يكونوا كما هم. وقد شعرت مرتين بأني مذنب: مرة حينما وارَيْنا التراب جثمان علال الفاسي. ومرة أخرى حينما وارَيْناكِ التراب. ببساطة كأننا، لكثرة ما مررنا بالتجربة، لم نقم بعمل يسيء إلى عشرة طويلة لم يكن فيها غير الود والحب والتعلق والتقدير والوفاء.

عدنا من المقبرة وشريط طويل يمر أمام ناظري. بدايته يوم استقبلتني بفرحتك العارمة – كنت أول طفل في العنقود – وحضنتني بين يديك وصدرك، وعلمتني كيف أضع أنبوب الحياة بين شفتي من ثديك. نهايته يوم اسلمت الروح وأنت بين يدي. عيناي معلقتان بشفتيك المستسلمتين أصبعي على نبضك يصد الحياة وهي تغادر جسمك إلى غير رجعة. شريط طويل عرفت فيه كل القيم الإنسانية الجميلة: الحب، الرحمة، العطف، الطُّهر، الصبر، المعروف، الكلمة الطيبة، السماح، الأمل، الإيمان بالله، الثقة في عدله وقدرته، التضحية، حب الآخرين، تقدير المناضلين، الإشفاق على المعوزين. والدعاء الصالح الذي كان "أوله رضى وآخره رضى لي ولأولادي ومن يتنسل مني" عرفت فيك المرأة الصابرة التي لا تجارين بشكوى، ولا تصخبين عند ضيم، ولاتشتكين من عجز...

عندما غادرتك – ولمدة طويلة – لم تزيدي على أن ودعتني بدعائك الصالح. ويوم استقبلتني بعد غياب طويل لم تزيدي على أن أهَلّ وجهك بفرحة حسبتها فرحة العمر. ومن كان يستطيع أن يدرك مضمون هذه الفرحة غيري بعد فراق إحدى عشرة وتزيد..

وبدأت من جديد آلام اللقاء بعد آلام الفراق. للقاء ايضا آلام. عرفت غياب أحد أبنائك في السجن. وكان السجن أحب إليك وأهون مما شهدته وسمعت عنه من قتل واغتيال

ومحاصرة ومدهامة للمنازل وللأمهات والزوجات والأخوات في خدورهن. وجاءت الفتنة الكبرى، ونحن – ثلاثتنا – في سجون متفرقة وأمام محاكم مختلفة، وأنت وحدك صابرة صامدة تقدرين الواجب الوطني يقوم به أبناؤك، وتشكرين الله على أن جعلك أمًا لثلاثة من المعتقلين في سجون الاستعمار. ولن أنسى اللحظة – حكيت لي ذلك – حينما جاؤوا بأخوي رابحي إلى المنزل، في منتصف الليل، وأنت قابعة أمام عشائه تنتظرينه، ثيابه معطرة بدمائه، جسمه مرصع بحروف أعقاب السجائر، يداه مقيدتان يجرونه وهو لا يستطيع أن يقيم أوده، يبحثون في المنزل عن بقايا السلاح، عن دلائل الاتهام. منعوك أن تناوليه شربة ماء. بكى قلبك. عيناك لم تذرفا دمعة واحدة، وهم يجرونه خارجين كما كانوا يجرونه داخلين...ولن أنسى اللحظة – حكيت لي ذلك – حينما حملت قفة فيها بعض من أكل وبعض من ثياب إلى سجن "العادر" وحينما أخرجوه محاطا بحراسه وأصبح عند مرمى البصر منك تقاذفته أيدي الجلادين بالصفعات، ثم أخذوا منك قفتك الفقيرة تلك ليرموا بها في التراب...

عدت أدراجك. ما ذرفت دمعة ولكن بكى قلبك.

كنت تذكرين دائما: علال الفاسي وأحمد بلافريج والحاج عمر فيفتر ثغرك عن ابتسامة اعتزاز بهؤلاء الذين كانوا قدوة لأبنائك. كنت تعتزين بهم فيهون عذاب ابنائك أمام اعتزازك.

يوم ودعت ثلاثة من بناتك وأولادك. كنت لا تبكين. ولكن الذين يقفون حولك يبكون للمرأة المتجلدة الصامدة للثكل كما صممت للعذاب والفراق والمحنة.

أذكر وابنتك الصغيرة مسجاة في غرفة إنعاش تتنفس صناعيا من خلال أسلاك وأنابيب. قلت لي بشجاعة:

-ليتركوها تفارق الحياة في سلام. ليرحموا موتها بلا عذاب.

-بميت لكلماتك. ولكن عينيك كانتا صافيتين صفاء امرأة وهبت ابنتها الوحيدة لله.

أذكر، وأنت تودعين جثمان ابنك في شيخوختك. بكى الآخرون والأخريات كما لم يبك أحد من قبل. ولكنك منت صامدة تتطلع عيناك وقد ملأها الرعب إلى وجهه في صفرته، صفرة الموت. وليت راجعة تتمتم شفتاك:

-في حمى الله ... في حمى سيدنا محمد ...

تلك ساعة رهيبة بدأ فيها العد العكسي في صمتك وحياتك.

-أرأيت هذه.

وعيناك الصافحتان بالألم تشيران إلى صورته معلقة في غرفتك. ثم غاب صوتك فلم يكمل الجملة. أي ألم هذا الذي أجهض الكلمة في فمك...؟

كان على موعد معك كل صباح، كل مساء. ويوم غاب، غابت معك أصباحك وأمسياتك. كنت تذكرينه في كل حين، ذكرى قلب كليم، ذكرى لسان عاجز عن الكلمة.

يوم زيارتي لك – لم تكن محددة ولا موعودة – كان اسمي يدرج على لسانك منذ الصباح:

-ألم يصل بعد؟ لم تأخر؟ افتحي الباب لعله هو ...

أشعر دائما بأني لبيت النداء. كان شوقك يصلني عن بعد. حتى إذا كان المساء الحزين حفزني "الشوق" للحظة التي لم أشهد مثيلها في حياتي، لحظة فراق أعز إنسان وأكرم أم وأرحب قلب عشت في رحابه طيلة حياتي.

الفراق على صغر جرح يندمل.

الفراق على كبر جرح غائر، غائر لعله لا يندمل إلا بالموت

هذه تجربتي. أمخطئ أنا ؟

أماه.. وداعا...إلى اللقاء..